قواعد المنهج عند واصل بن عطاء

أ.د عبد الفتاح الفاوى

لواصل بن عطاء منهجه الذى أقام عليه مذهبه فى أصول الدين وأصول الفقه والذى التزمه فى رسائله وكتبه وفى مناظراته وجدله. وهو منهج جاء إلى حد بعيد متلائماً مع ثقافته التى تضافرت على تكوينها عدة عوامل من أهمها:

أنها ضمت إلى العلوم الإسلامية الثقافات الوافدة التى ظهرت فى عصره عند المسلمين عبر ما نقلوه أو ترجموه ومن خلال ما احتكوا به أو شاهدوه.

ثم احتكاكه بالمخالفين؛ سواء منهم من كان على دين مخالف؛ كالنصارى؛ والمانوية أم على مذهب مخالف كالجهمية أتباع الجهم بن صفوان الذى كان يدين بالجبر ، أو من كان ينشر التحلل والزندقة كبشار بن برد[1] . وفى ذلك قال عنه صاحبه عمرو بن عبيد "لم يكن أحد أعلم منه بفرق المخالفين"[2] .

يضاف إلى ذلك تلك الشخصيات التى تلقى واصل العلم عليها مثل: أبى هاشم محمد بن على بن أبى طالب الملقب بابن الحنفية وهو من أشجع أولاد على وأكثرهم علماً وقد سئل ابنه أبو هشام عن علم أبيه فأجاب انظروا إلى أثره فى واصل[3] .

والحسن البصرى. ومع أن قصة اعتزال واصل للحسن البصرى معروفة إلا أن المعتزلة تعد الحسن البصرى واحدا منها. وقد ظل واصل فى مجلس الحسن البصرى أربع سنين لا يتكلم فسألوا الحسن عنه فقال: إما أن يكون أجهل الناس أو أعلم الناس[4] .

ثم معبد الجهنى غير أن واصلا قد تجاوز بعلمه وفكره آراء معبد.

---

(١) وقد فر بشار من البصرة ولم يستطع الإقامة بها وواصل فيها .

(٢) طبقات المعتزلة ٢٣٤ .

(٣) الحميرى : الحور العين ٢٠٧ .

(٤) طبقات المعتزلة : ٢٣٥ .

هذا ومما يدل على سعة ثقافته وشدة علمه بفرق المخالفين كتبه التى ألفها وهى كثيرة ينبغى قبل أن نتحدث عنها أن نتحدث عن واصل نفسه. فهذا مما يعين على التعرف على ثقافته وعبقرية منهجه.

واصل:

كان من أهل المدينة ولد عام ٨١ هـ ورباه محمد بن على بن أبى طالب محمد (ابن الحنفية) وكان مع ابنه هاشم عبد الله بن محمد فى الكتاب ثم صحبه بعد موت أبيه صحبة طويلة.

وحكى عن بعض السلف أنه قيل له: كيف كان علم محمد بن على؟ فقال إذا أردت أن تعلم ذلك فانظر إلى أثره فى واصل ثم انتقل إلى البصرة فلزم الحسن بن أبى الحسن البصرى[١] .

كان مولى من الموالى، ويذكر المنية والأمل[٢] أنه اختلف فى أنه مولى لبنى هاشم، أو مولى لبنى ضبة، أو مولى لبنى مخزوم . على أنه يبدو أنه كان مولى لبنى هاشم لصلته بأحد أفراد البيت الهاشمى .

تتلمذ على محمد بن الحنفية وفى مدرسته تخرج وعرف فى هذه المدرسة آراء الغلاة من الشيعة (السبئية والكيسانية وغيرهما) يقول ابن المرتضى إنه ليس ثمة أحد "أعلم بكلام غالية الشيعة أو مارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم منه"[٣] .

وبالرغم من أنه كان مولى لكنه ولد حراً ، ولا تحدثنا المصادر عن أبويه ولا تذكر عنهما شيئاً . وتذكر هذه المصادر أن واصلا كان غزالا وتختلف فى تعليل تلك النسبة ، الصناعة كان يقوم بها هو أو والده - وكثير من المعتزلة ينتسبون إلى هذه الصناعات كالغزال والعلاف والنظام والفوطى والاسكافى . . . الخ وقد يكون فى هذه النسبة مايشير إلى أصلهم غير العربى - أم لقب بذلك لأنه كان يلازم الغزالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن كما يقول ابن خلكان[٤] .

(١) أبو القاسم البلخى : ذكر المعتزلة ص ٦٤ ضمن فضائل الاعتزال وطبقات المعتزلة تحقيق فؤاد سيد نشر الدار التونسية ١٩٧٤ م.

(٢) ابن المرتضى : المنية والأمل ١٨ .

(٣) السابق ١٨ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٨٩ .

انتقل واصل بعد ذلك من المدينة إلى البصرة ومن التتلمذ على يد ابن الحنفية وأولاد ابن الحنفية من بعده، إلى التتلمذ على يد الحسن البصرى . والبصرة - آنذاك - كانت ثغر البلاد وقاعدة الآراء المختلفة والحضارات المتنافرة . بدأ واصل يتردد على أكبر مجمع علمى فيها وهو مدرسة الحسن البصرى . يقول طاش كبرى زاده "إن واصلا جالس حسن البصرى بعد أبى هاشم يأخذ منه الفقه"(١) واستمر على ذلك حتى انفصل عنه أو اعتزله تبعاً للقصة المشهورة التى أوردتها كتب الفرق والتى قال فيها الحسن البصرى "اعتزلنا واصل" .

وواصل وإن تتلمذ على الحسن البصرى وكان من مريديه ومن كبار أصحابه غير أنه لم يتأثر كثيراً أو لم يكن تأثيره فيه ظاهراً وملموساً. وربما كان ذلك للاختلاف بين ثقافة كل منهما ومنهجه ، فالحسن البصرى ذو ثقافة إسلامية خالصة ومنهج نصى ملتزم بينما جمع واصل فى ثقافته بين علوم المسلمين وما تُرجم أو نقل من علوم الآخرين كما كان ذا منهج عقلى متحرر .

يضاف إلى ذلك أن واصلا تتلمذ على الحسن البصرى مؤخرا بعد أن كون آراءه واكتمل ونضج فى مدرسة محمد ابن الحنفية قبل حضوره إلى البصرة ، كما أنه اتصل بغيلان الدمشقى مولى الأمويين وتأثر به فى آرائه فى القدر.

يقول "طاش كبرى"(٢) وأول ما ظهر مذهب الاعتزال وشاع إنما ظهر من واصل بن عطاء أخذ الاعتزال عن الإمام أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب الذى قيل أنه كان أول من أحدث مذهب الاعتزال واخترعه هو وأخوه الإمام الحسن بن محمد بن الحنفية . . ولكن ظهر واشتهر الاعتزال من واصل بن عطاء أبى حذيفة المعروف بالغزال. فواصل إذن نتاج لهذين الإماميين ثم ثالثهما الحسن البصرى أخذ عنه الفقه واتفق معه فى مسألة القدر وهى المسألة التى شغل بها الحسن البصرى أول الأمر ثم رجع عنها.

وكان ظهور واصل فى أوائل المائة الثانية وقد عاصر أبا حنيفة النعمان(٣) صاحب

---

(١) مفتاح السعادة ٢/٣٤ .

(٢) السابق ٢/٣٤ وما بعدها.

(٣) ولد سنة ٨٠ وتوفى سنة ١٥٠ .

مدرسة الرأى والقياس فى الفقه وتلميذه أبا يوسف[1] . فكان واصل رائد المدرسة العقلية فى الأصول أو الفقه الأكبر وأبو حنيفة رائد تلك المدرسة فى الفروع أوالفقه.

مؤلفاته: ضاعت كل مؤلفات واصل ومعظم مؤلفات المعتزلة ولم يتبق لنا منها إلا شذرات منقولة عنها فى كتب الأشاعرة أو كتب غيرهم من مؤرخى الفرق ولقد سجل اثنان من المستشرقين هذه الحقيقة يقول أولهما وهو "أرنولد" إن ثورة أهل السنة على المعتزلة بلغت من النجاح فى إتلاف كل مؤلفات هذه الفرقة حدا يحمل المؤرخ مضطراً حتى الآن إلى الرجوع فى معرفة تاريخهم ومذاهبهم إلى مؤلفات قوم نظروا إليهم كما ينظرون إلى الزندقة وكتبوا ذلك عنهم بروح التعصب( ) .

ويقول "نيبرج" فى حديثه عن كتاب الانتصار[3] لأبى الحسين الخياط "هو من تركة المعتزلة ولا يخفى على عالم أن هذا الصنف من الكتب العربية قلما إنتهى إلى هذا العصر ذلك لما نزل بمنازله من الإحراق والتدمير وصب على رؤس أصحابه من التقبيح والتكفير والقليل الباقى منه قد بلغنا عن إحدى طرق ثلاث: منه ما تحنت عليه الزيدية فى اليمن اعتناء بمذهبهم الذى هو أقرب ما يكون إلى مذهب الإعتزال ومنه ما ادخره العلماء رغبة فى الانتفاع بما فيه من علوم شتى مما لا علاقة له بعلم التوحيد ومنه ما انملق على أيدى مضايقيه خفية أو صدفة" .

إذن فالذى بين أيدينا من آثار المعتزلة وتراثهم الفكرى ليس إلا جزءا ضئيلا بالنسبة لما كان لهم وأغلب الظن أنه لو بقى هذا التراث كاملا ولم يقدر لنزعات التعصب المذهبى أن تعبث به وتجنى عليه لكان للمعتزلة فى تاريخ الفكر والأدب مكان أسمى ومنزلة أرفع ولوجد الباحثون المادة التى يستطيعون بها أن يقوموا تلك العقلية كما ينبغى لها أن تقوم وأن يقدروا المكانة التى يجب أن تحتلها.

إن المعتزلة بذلك التراث القليل الذى وصلنا عنهم والذى استطاع أن يفلت بوسيلة ما من يد التلف والدمار قد كشفت لنا عن طراز جديد من التفكير لم يكن مألوفا

---

(١) ولد سنة ١١٣ وتوفى سنة ١٨٢ .

(٢) نقلاً عن "ابراهيمبن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية" ,٧٣

(٣) مقدمة كتاب الإنتصار ١٠.

فى تلك الحقبة من الزمـان وهو على قلته قد منح المعتزلة ذلك التقـدير الذى اختصوا به على طول مراحل التاريخ فما بالك لو بقيت لنا جميع آثارهم ومؤلفاتهم.

وعلى أية حال فـقد حفظت لنا المـراجع أسماء بعض كـتب واصل وشذرات من نصوصها.

منها كتاب الألف مسألة[1] فى الرد على المانوية الذى يقول عنه البـاهلى: قرأت لواصل الجزء الأول من كتاب الألف مسألة فى الرد على المانوية فأحصيت فى ذلك الجزء على مخالفيه نيفاً وثمانين مسألة[2] ، وكتاب أصناف المرجئة، وكـتاب الثنوية، وكتاب المنزلة بين المنزلتين وكتاب الخطب فى التوحيد والعدل، وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد[3] ، وكتـاب السبيل إلى مـعرفة الحق ، وكـتاب الدعوة ، وكـتاب أهل العلم والجهل، وكتاب خطبته التى أخرج منها الراء[4] .

هذا ولم يكتـف واصل بتلك الكتب فـى الرد على المخـالفين وإنمـا كـان يدرب تلاميـذه على أصول دعوة الاعـتزال ثم يبـعث بهم إلى أرجاء العالم الإسـلامى ليناظر المخالفين فبـعث عبد الله بن الحارث إلى المغـرب فأجابه خلق كثيـر، وحفص بن سالم إلى خراسان حيث ناظر الجهم بن صفوان[5] ، والقاسم بن السعدى إلى اليمن وأيوب إلى الجزيرة والحسن بن زكوان إلى الكوفة وعثمان الطويل[6] إلى أرمينية وقال له: الزم سارية من سـوارى المسجد سنة تصلى عندهـا حتى يعرف مكانك ثم أفت بقـول الحسن سنة ثم إذا كان يوم كذا وكذا من شهر كذا فابتدىء فى الدعاء للناس إلى قول الحق فإنى

---

(١) فى هذا العنوان خطأ نحوى وصحته ألف المسألة أو المسائل الألف أو ألف مسألة لأن المضاف ينبغى ان يكون أعرف من المضاف إليه.

(٢) المنية والأمل ٢١ .

(٣) كان عمرو بن عبيد يعتبر الفاسق منافقاً كرأى الحسن البصرى ثم رجع عن ذلك وقد أورد صاحب المنية فقرات من هذا الكتاب.

(٤) أنظر الفهرست ٢٥١ ، وفيات الأعيان ٥/٦٣ ، المنية والأمل ١٨ .

(٥) كان جهم يراسل واصلا فى كثير من المسائل المشكلة التى كانت مادة نقاشه مع السمنية . أنظر المنية والأمل ١٩ .

(٦) أستاذ أبى الهذيل العلاف أنظر : فضائل الاعتزال وطبقات المعتزلة ٥٧ وكان واصل قد قال له أخرج إلى أرمينية فقال عثمان يا أبا حذيفة خذ شطر مالى وانفذ غيرى فقال له : امض يا طويل فلعل الله أن يصنع لك. قال عثمان فخرجت فربحت مائة ألف درهم على صفقة فى يدى وأجابنى أكثر أهل أرمينية . أنظر السابق والصفحة.

أجمع أصحابى فى هذا الوقت ونبتهل فى الدعاء لك والرغبة فى الله. والله ولى توفيقك.

وفى هذه البعوث يقول صفوان الأنصارى المعتزلى.

أما كان عثمان الطويل بن خالد

أو القرم حفص نهبة للمخاطر

له خلف شعب الصين من كل ثغرة

إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر

رجال دعاة لا يفل عزيمهم

تهكم جبار ولا كيد ماكر

ويقول فى واصل :

تلقب بالغزال واحد عصره فمن لليتامى والقبيل المكابر

ومن لحرورى وآخر رافض وآخر مرجى و آخر حائر

وأمر بمعروف و إنكار منكر وتحصين دين الله من كل كافر

وكان من أكبر تلاميذه بالبصرة بشر بن سعيد وأبو عثمان الزعفرانى، وعنهما أخذ بشر بن المعتمر، وأبو الهذيل العلاف الاعتزال[1] ، وأبو الهياج بن العلاء السلمى، وعنه أخذ أحمد بن أبى دؤاد الاعتزال كما يذكر طاش كبرى زاده[2] وبهذا نرى أنه كان لواصل عبقرية ذات ثقافة واسعة ومنهج عقلى كان له أكبر الأثر فى الحركة الفكرية للعلوم الإسلامية بوجه عام وفى إرساء قواعد الاعتزال بوجه خاص.

منهجه :

سبق واصل بن عطاء فلاسفة المسلمين فى الإطلاع على ما نقل وترجم من كتب فى عصره وفى تبنى المنهج العقلى فى بحوثه ومناظراته، إن فى أصول الدين أو أصول

(١) التنبه ٣ .

(٢) مفتاح السعادة ٣٩/٢ .

الفقه وشق بهـذا المنهج للمعتزلة من بعده طريقـا سلكوه ومنهجا التزموه فيـما ألفوه من كتب أو عقدوه من مناظرات وتفوقوا فيه على غيرهم. وسنرى هنا أثر هذا المنهج العقلى والحرية الفكرية فى بحوث واصل ومؤلفاته.

١ - **فى علم الكلام:** المتأمل فى قول واصل "بالمنزلة بين المنزلين" - الذى بسبب منه انفصل عن الحسن البصرى واعتزل مجلسه والذى أصبح أصلاً من أصول المعتزلة الخمسة بعد ذلك - المتأمل - يجد أن واصلا كان شديد الولاء فيه للمنهج العقلى لأن حكمه على الفاسق أو مرتكب الكبيرة بأنه ليس مؤمنا وليس كافرا وإنما فى منزلة بينهما مبنى على استنتاجات عقلية عنده يرى فيها أن "الإيمان" عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمى الإنسان مؤمنا وهو اسم مدح سلب عن الفاسق بفسقه ولكن هذا الفاسق الذى لا يستحق اسم الإيمان لفسقه لا يستحق اسم الكفر أيضا لنطقه بالشهادتين وإقراره بأصول الدين.

فالعقل هو الذى حدد هذا الحكم ورجحه عند واصل وجاء القرآن يؤيد العقل ويعضده فى هذا الحكم فكانت هذه المسألة مما تعاضد العقل والنقل فى تقريرها والحكم عليها عنده بخلاف مذهب الخوارج الذى يقول بالتكفير ومذهب المرجئة الذى يقول بأن لا تضر مع الإيمان معصية فإن هذا وذاك مما لا يؤيده عقل أو يشهد له نص فى نظره.

يقول الخياط على لسان واصل "وقد أجمعتم أن سميتم صاحب الكبيرة بالفسق والفجور فهو اسم له صحيح بإجماعكم وقد نطق القرآن به فى آية القاذف "والذين يرمون المؤمنات المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون"(١) وغيرها من القرآن فوجب تسميته بها وما تفرد به كل فريق من الأسماء فدعوى لا تقبل منهم إلا ببينة من كتاب الله أو من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم"(٢).

لم يكن واصل يريد فقط أن يتوسط النزاع كما ذهب إلى ذلك بعضهم فى قوله "كأنه يريد التوسط بين الخلافين واستمالة الفريقين إلى رأيه"(٣) وإنما قال بذلك ولاء

---

(١) النور: ٤.

(٢) الخياط الانتصار ١٦٥.

(٣) محمد زاهد الكوثرى: مقدمة تبيين كذب المفترى ١١.

لمنهجه العقلى وتطبيقا له. وهو وإن أورد فيه حكما وسطا فإن الوسطية هنا جاءت لأمن أجل التوسط وإنما أملاه عليه منهجه العقلى. فالفاسق أم مرتكب الكبيرة فى نظره يشبه المؤمن فى عقده ولا يشبهه فى عمله ويشبه الكافر فى عمله ولا يشبهه فى عقده فهو وسط بين الاثنين بهذا المنهج وجاء حكمه وسطا لهذا المنهج أيضاً.

ومخطئ - أو قل قد جاوز الصواب - من يظن أو واصلا ارتجل حكمه فى هذه المسألة فى نفس الجلسة التى أورد فيها السؤال فلم يكن هذا الحكم وليد تلك الجلسة وإنما كان نتيجة تفكير طويل وتحليل دقيق لمعنى الإيمان والكفر قام به واصل من قبل وانتهى به إلى هذا الرأى ووجد فى التساؤل الذى أثير فى مجلس الحسن فرصة لإعلانه بدليل أنه إثر هذه الواقعة قام إلى مكان آخر فى المسجد وأخذ يقدم الأدلة على صدق ماذهب إليه(١) .

ورأى واصل فى هذه المسألة يفهم فى ضوء مفهوم الإيمان لديه ولدى المعتزلة بوجه عام ، فليس الإيمان مجرد اعتقاد القلب أو نطق اللسان وإنما هو قول وعمل ومن ثم فإن فاعل الكبيرة بفعله الشر فقد الإيمان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا إيمان لمن لاأمانة له ويقول لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن وآيات كثيرة يقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح "إن الذين آمنوا عملوا الصالحات" فلا إيمان بلا عمل صالح ومن ثم فإن ألزم ما يقتضيه الإيمان إجتناب الكبائر إلى جانب أداء الطاعات وفعل الخيرات(٢) .

وإذا كان الإيمان عقيدة وعمل عند واصل فهو يزيد وينقص ورد على ذلك الآيات الكثيرة من القرآن الكريم مثل "ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم"(٣) "ويزداد الذين أمنوا إيمانا"(٤).

ولم يكن غضب الله على الأمم البائدة فيما قصه من قصصهم مع الأنبياء لمجرد

---

(١) أنظر الملل والنحل ١/٦٠ .

(٢) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ١/٣٠٤ .

(٣) الفتح ٤ .

(٤) المدثر ٣١ .

شركهم وإنما لظلمهم وطغيانهم وذيوع الشر والفواحش فيهم "وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون"(١) "وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا"(٢) .

فحكم واصل على مرتكب الكبيرة متسق مع مذهبه متلائم مع منهجه وليس مجرد توسط طائفتين أو حكم وسط بين حكمين .

يقرر واصل حكم مرتكب الكبيرة وأنه فى الدنيا فى منزلة بين منزلتين وفى الآخرة مخلد فى النار بمقتضى منهجه العقلى إلى جانب تأييد كثير من النصوص لهذا الحكم وهو لايعبأ بعد ذلك أو يكترث بما يثيره ذلك الحكم من اعتراض من بعضهم أو تعارض مع ظاهر بعض ما جاءت به الشريعة ، إذ يترتب على هذا القول أن مرتكب الكبيرة لاحظ له من الشفاعة وهنا يرد واصل بأن الشفاعة ليست لأصحاب الكبائر لأن العدل يقتضى بأن يعذب العاصى على معصيته والشفاعة تتنافى مع هذا العدل فالشفاعة عنده ليست لهؤلاء وإنما هى للصالحين.

إلى هذا الحد بلغ ولاء واصل للعقل ومنهجه فى تقريره لمسائل العقيدة.

وقد طبق واصل هذا المنهج العقلى فى الخلاف السياسى الذى كان بين علىّ وأعدائه وكانت جملة الآراء أو المواقف فى ذلك الخلاف ثلاثة: رأى الخوارج وهم يكفرون عليا وأعداءه. كفر أعداؤه بمقاتلته أولاً ثم كفر هو بموافقته على التحكيم ثانياً. ورأى أهل الحديث وكانوا يرون إسلام الفريقين وإيمانهم غير أن عليا كان على حق واعداؤه على خطأ - اجتهاد لا يلزم عنه الكفر ثم رأى شيعة على وكانوا يرون تفسيق الفريق الأخر.

حتى جاء واصل واحتكم إلى العقل فى هذا الخلاف فاعتبر أحد الفريقين فاسقاً لابعينه ولا تقبل شهادة واحد منهما وذلك قياساً على المتلاعنين (انظر إلى هذا التنظير أو القياس العقلى) إذ أن أحدهما فاسق لابعينه ولا تقبل شهادتهما.

يفسر الخياط قول واصل فى على وأصحاب الجمل بما يأتى:

"كان القوم عندهم أبراراً اتقياء مؤمنين قد تقدمت لهم سوابق حسنة مع رسول

(٤) لقصص ٥٩ .

(٥) الكهف ٥٩ .

الله صلى الله عليه وسلم وهجرة وجهاد وأعمال جليلة ثم وجدهم قد تحاربوا وتجادلوا بالسيوف فقال: قد علمنا أنهم ليسوا بمحقين جميعاً وجائز أن تكون إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطلة أو لم يتبين لنا من المحق فيهم ومن المبطل، فوكلنا أمر القوم إلى عالمه وتولينا القوم على أصل ما كانوا عليه قبل القتال فإذا اجتمعت الطائفتان قلنا قد علمنا أن إحداكما عاصية لا ندرى أيكما هى"[1].

وقد تكلم المعتزلة بعد واصل فى هذه المسألة ووافقة بعض شيوخهم وخالفه الآخرون ومن أهم مخالفيه تلميذه أو صديقه عمرو بن عبيد إذ يرى فسق كلتا الفرقتين المتقاتلتين فيما تنقله عنه كتب الأشاعرة أما الخياط فلم ينقل إلينا بينهما خلافاً.

ومن المسائل الكبرى التى تناولها واصل بمنهج عقلى مسألة الصفات الإلهية أو ما يسمى عند المعتزلة بأصل "التوحيد".

فقسم الصفات الإلهية (قسمة عقلية) إلى قسمين صفات سلبية وصفات ثبوتية. الأولى هى التى تسلب عن الله ما لا يليق بكماله. ومن هذه الصفات القدم ويجعله واصل أخص وأهم صفة للذات الإلهية وهى صفة تنفى عن الله الحدوث، ومنها الوحدانية التى تنفى عن الله التعدد، ومنها مخالفة الحوادث التى تنفى عن الله المشابهة للحوادث. والمعتزلة وإمامهم واصل يصفون الله بهذه الصفات السلبية لأنها لا تثبت شيئاً زائداً على الذات ومن ثم لا تمس فكرة التوحيد.

أما القسم الثانى فهو الصفات الثبوتية أو الإيجابية التى تتعلق بإثبات معنى زائد على الذات مثل العلم والقدرة والإرادة والحياة وغيرهم وقد نفى واصل إثبات هذه الصفات زائدة على الذات لأن إثباتها بهذه الطريقة يتعارض مع التوحيد فى نظره وقدم بين يدى هذا النفى أدلته العقلية التالية:

١ - إثبات هذه الصفات يجعلها مشاركة لله فى القدم - لأن الصفة فى حق الله لا تتأخر عن الموصوف والقدم أخص صفات الذات الإلهية - وهذا يؤدى إلى تعدد القدماء وهذا التعدد ينافى التوحيد.

٢ - يؤدى القول بإثبات هذه الصفات زائدة على الذات إلى مشابهة النصارى

(١) الملل والنحل ١/٦٥ ، التبصير ٤١ .

الذين قالوا بوجود ثلاثة أقانيم أو مبادئ فى الذات الإلهية هى الأب والابن والروح القدس بل إن إثبات الصفات الإيجابية كلها يؤدى إلى تعدد أكثر من تعدد النصارى.

٣ - إثبات هذه الصفات يؤدى إلى تصور الذات الإلهية وكأنها مركبة من صفة وموصوف والتركيب من صفات الأجسام الجسمية مستحيلة على الله تعالى لما يترتب عليها من نفص وحدوث واحتياج[١].

لكل هذا ذهب واصل إلى إنكار زيادة هذه الصفات عن الذات ووحد بينها وبين الذات كما هو معروف عند المعتزلة.

وبهذا المنهج العقلى الواضح عالج شبح المعتزلة مسألة الصفات معالجة تصدى فيها لما كانت تعتقده المشبهة[٢] والحشوية من تجسيم وتشبيه ولما كانت تعتقده النصارى والثنوية من تعدد.

يذكر نيبرج فى مقدمته لكتاب الانتصار[٣] أن المعتزلة إنما قامت للدفاع عن التنزية تجاه الأفكار التجسيمية التى دخلت الإسلام عن الثنوية، وأن المناقشات الأولى بين المعتزلة وأعدائها إنما كانت بينهم وبين الفرس الثنوية. فواصل بن عطاء وعمرو بين عبيد يناظران بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس ويطردانهما... وهم أشد المسلمين دفاعاً عن الإسلام فى ذلك الزمان إذ قامت المعتزلة بأشد ما احتاج إليه الإسلام فى ذلك العصر وهو الإستعانة بما استعانت به الأديان المحيطة به كلها من منهج عقلى وطريق فلسفى لإبراز ما كمن فى الدين من القوى والفضائل.

ومع أن واصل بن عطاء، والمعتزلة عموماً قد درسوا الفلسفة وأطلعوا على شتى تياراتها غير أنهم لم ينهجوا فى مسألة الصفات الإلهية منهج التعطيل الذى انتهجه الفلاسفة بل هاجموا أرسطو وقوله بقدم العالم وبفكرة المحرك الأول التى تسلب عن الله القدرة على الخلق وتقصر عمله على التحريك عن طريق أنه معقول ومعشوق وهاجموا

---

(١) الملل والنحل ١/٥٧.

(٢) كانت المقاتلية تقول بالتشبيه وتنشر آراءها فى كل مكان وكان شيخها مقاتل بن سبيمان يحتل مكانة مرموقة لدى المسلمين.

(٣) ص ٥٨.

نظرية الفيض والصدور التى عرفت عن أفلوطين لأنها تسلب عن الله الإرادة. وهذا ما يجعلنا نتردد فى قبول ما يذكره الشهرستانى[١] من أن نفى الصفات عند المعتزلة يعود إلى قول أخذوه عن إخوانهم من المتفلسفة ونرجح أن الذى دفعه إلى ذلك هو الحملة المعروفة التى شنها الأشاعرة فى مؤلفاتهم على المعتزلة[٢].

على أن الشهرستانى مع ذلك الاتهام الذى اتهم به المعتزلة من متابعتهم للفلاسفة يعفى أو يبرئ واصلاً منه عندما يقول: "القول بنفى صفات البارى تعالى من العلم والقدرة والحياة. كانت هذه المقالة فى بدئها غير نضيجة وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر، وهو الاتفاق على استحالة وجود الهين قديمين أزليين ومن أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت الهين وإنما شرعت أصحابة فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة وانتهى نظرهم فيها إلى كونه عالماً قادراً وذلك عين مذهب الفلاسفة"[٣].

ولسنا فى مجال الرد على الشهرستانى ولكنا نحيل على ما ذكرناه منذ قليل من أن المعتزلة أنفسهم هاجموا أقوال الفلاسفة فى الصفات[٤] فالمعتزلة أخذوا من الفلسفة والفلاسفة المنهج العقلى والروح الفلسفية دون الأفكار والآراء ولجأوا إلى رقيق الكلام ودقيقة لكى يدافعوا عن الإسلام.

وبناء على فهم المعتزلة لمبدأ التوحيد وتحمسهم له ردوا كل شئ يتعارض معه. وقد ترتب على هذا قولهم بخلق القرآن ونفى قدمه لئلا يشترك مع الله شئ فى القدم الذى هو أخص صفاته[٥] وأنكروا رؤية الله فى الجنة وتأولوا الآيات التى يفيد ظاهرها الرؤية[٦] لتعارضها مع التنزيه الإلهى.

والذى حدا بواصل وبالمعتزلة إلى ذلك هو رغبتهم فى تقويم وتقديم القضايا

---

(١) الملل والنحل ٣٢/١ وانظر مقالات الإسلاميين ٤٧٥/٢ .

(٢) ظهرت أبعاد تلك الجملة بعد العثور على كتب للمعتزلة ونشرها مؤخرا إذ ظهر عدم دقة كثير مما نقله الأشاعرة من آراء المعتزلة.

(٣) الملل والنحل ٣٣/١ .

(٤) أنظر هذا البحث ص ١٦ .

(٥) أنظر الملل والنحل ١٥٥/١ ، مقالات الإسلاميين ٢٤٥/١ ، الفرق بين الفرق ٩٤ .

(٦) أنظر: الإبانة للأشعرى ١٤ ومقالات الإسلاميين ٢٦٣/١ .

الإسلامية مؤيدة بالعقل والمنطق ليسلم بهـا الخصم ويزداد الذين أمنوا بها إيماناً. فتبنيهم المنهج العقلى والروح الفلسفـية هو محاولة منهم لعرض مبادىء الدين فى صـورة مقبولة لدى المثقفين من الأعـاجم ولسـد تلك الفجوة التى كانت سـبباً فى حمل كـثيرين على الزندقة[1] .

هذا وقد انتـقد قول واصل وقـول المعتزلة عامـة فى الصفات من الأشـاعرة ومن غيـرهم ولكن هذه ليست قـضيـتنا لأننا نريد - فقط - أن نوضح المنهج العـقلى الذى التزمه واصل وأبعاد هذا المنهج فيما عالجه من مـسائل وقضايا وهو منهج تعتز به المعتزلة عموماً يقول الخياط " وهل يعرف أحد صحيح التوحيد وثبت القديم جل ذكره واحداً فى الحقيقة واحتج كذلك بالحجج الواضـحة وألف فيه الكتب ورد فيه على أصناف الملحدين من الدهرية والثنوية سواهم"[2] .

والتزم واصل فـى أصل "العدل"[3] بما التزمـه فى أصل "التوحـيد" من منهج عقلى واعتـبر العدل أهم صفـة للفعل الإلهى كما أن التـوحيد أهم صفة لـلذات الإلهية وأوجب بمقتضاه الصلاح والأصلح على الله تعـالى أو بعبارة أدق أوجب الله على نفسه الصلاح والأصلح بمقتضى هذه الصفة أو هذا الأصل لأن فعلهما (الصلاح والأصلح) هو الذى يتفق مع وصـفه تعالى بالحكمـة والعدل فالعـادل الحكيم لا يفعل إلا ما هو خـير وصلاح ولا يختار القبيح بوجه من الوجوه[4] .

وما نراه من الشر والفساد فى العالم فإنه يخفى وراءه حكمة باطنة قد ندركها وقد لا ندركها وعدم إدراكنا لها لا يعنى عدم وجودها بل يدل - فقط - على عجز العقل عن إدراكها.

والذى حمل واصـلا على هذا القول هو العقل ومـعادلاته فمـا كان الله سبـحانه ليعاقب أنسانا على عـمل وجهه إليه وأعانه عليه لأن من أعان فاعلا عـلى فعله ثم عاقبه

(1) Hamilton. A.R. Mohammedanism. p. 88.

(٢) الانتصار ، ٢١.

(٣) حد المعتزلة العدل بأنه ما يقتضيه العقل من الحكمة وهو رصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة بينما حده الأشاعرة بأنه وضع الشيء فى وضعه والتصرف فى الملك على مقتضى المشيئة والعلم. أنظر الملل والنحل ، ٥٦/١

(٤) شرح الأصول الخمسة ٢ ، ٣ .

عليه كان جائرا عابثا فى نظر العقل إذ لا يعاقب إنسان ولا يثاب إلا بمقتضى حرية واختيار يباشر بهما أفعاله وهذا هو مناط التكليف فالقسمة العقلية تقتضى إما أن تكون أفعال العباد كلها من الله فلا يستحقون ثوابا ولا عقابا أو تكون منهم ومن الله فيجب المدح والذم لهم جميعا أو منهم فقط فيكون لهم الثواب والعقاب والمدخ والذم[1].

وهنا يورد ـ صاحب المنية[2] مناقشة هامة بين واصل بن عطاء والإمام جعفر الصادق حول هذه المسألة جاء فيها أن جعفر قال لواصل: أما بعد فإن الله تعالى بعث محمدا بالحق والبينات والنذر والآيات وأنزل عليه "وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله" فنحن عترة رسول الله وأقرب الناس إليه وإنك - يا واصل - أتيت بأمر يقرق الكلمة وتطعن به على الأئمة وأنا أدعوك إلى التوبة".

فوقف واصل قال: الحمد لله العدل فى قضائه الجواد بعطائه المتعالى عن كل مذموم ، والعالم بكل خفى مكتوم ، نهى عن القبيح ولم يقضه وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه ، وإنك ياجعفر وابن الأئمة شغلك حب الدنيا فأصبحت بها كلفا وما أتيناك إلا بدين محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه وضجيعيه ابن أبى قحافة وابن الخطاب وعثمان وعلى بن أبى طالب وجميع أئمة الهدى فإن تقبل الحق تسعد به وإن تصدف عنه تبؤ بائمك.

فواصل هنا يحاول اقناع جعفر برأيه بما يورده عليه من أدلة حتى إن صاحب المنية يرى أن جعفر الصادق نفسه يوافق واصلا على رأيه فى القدر ويختلف معه فى المنزلة بين المنزلتين. يقول: " ومن كلام جعفر بن محمد الصادق وقد سئل عن القدر. ما استطعت أن تلوم العبد عليه فهو فعله وما لم تستطع فهو فعل الله. يقول الله للعبد لم كفرت. ولا يقول لم مرضت فلا تقول إن جعفر أنكر على واصل بن عطاء القول بالعدل ، بل المنزلة بين المنزلتين"[3].

(١) أنظر المنية والأمل ٣٥ .

(٢) ابن المرتضى : المنية والأمل ١٨ .

(١) يذهب نلينو إلى أن واصل بن عطاء كان فقط من القائلين بالمنزلة بين المنزلتين. نلينو : بحوث فى المعتزلة ١٩٢ والصحيح أو واصلا تكلم فى كل أصول المعتزلة إلا أن مصطلح الأصول الخمسة فضلا عما تفرع عنه من نظريات لم يظهر فى عهد واصل . فقد كانت بعض الموضوعات فى عهده - على حد تعبير الشهرستانى - غير نضيجة بل إن كثيراً من المسائل لا سيما ما يتصل منها بدقيق الكلام لم ينشأ إلا لدى رجال الطبقة السادسة وعلى رأسها أبو الهذيل . أنظر فى علم الكلام ١٢٠/١ والملل ٦٢/١ .

ويبدو أن خالد بن عبد الله القسرى وهو قاتل الجعد بلغه عن واصل كلامه فى القدر فاستدعاه وسأله عن الأقوال التى يشيعها بين الناس. فأجاب واصل أقول: يقضى الله الحق ويحب العدل. قال خالد: فما بال الناس يذبونك. قال: يحبون أن يحمدوا أنفسهم ويلوموا خالقهم فقال: لا وكرامة. الزم شأنك[1] . كما أن صاحب الفهرست يذكر لواصل كتاب الخطب فى العدل والتوحيد[2] .

ومما استنه واصل للمعتزلة فكرة التحسين والتقبيح وأن العقل قادر على التمييز بين حسن الأشياء وقبحها قبل ورود الشرع . والحق أنه ما من رأى قاله واصل إلا وأخذ مصطلحا بعده[3] فى مدرسة المعتزلة التى وضع أسس مذهبها.

فهو الذى فتق أكمام الكلام فى هذه المسائل ثم اكتملت على يد اتباعه من بعده[4] وقد دارت بينهم وبين خصومهم مجادلات ومناقشات الذى يهمنا منها أن المعتزلة وعلى رأسهم واصل بن عطاء كانوا يستندون فيها إلى العقل ويعتبرونه المرجع الأساسى فى أحكامهم ومعارفهم فهم يؤمنون بنظرية "الفكر قبل ورود السمع"[5] وأن المعارف كلها ضرورية وطبيعية يدركها العقل بالضرورة قبل ورود الشرع ومن ثم فإن معرفة الله عندهم وإدراكه عن طريق النظر والاستدلال شيء ضرورى واجب بالنسبة للعاقل المتمكن من النظر.

وقد فتح واصل بهذا المنهج الطريق أمام الفكر الإسلامى ليأخذ دوره من التطور والارتقاء. يقول المستشرق أدم متز "إن مباحث المعتزلة فى ذات الله وصفاته كان لها أثر كبير فى مذهب سبينوزا ونفذ التأثير من مذهب سبينوزا إلى الفكر الأوربى"[6]

---

(١) مفتاح السعادة ٢/٣٥ .

(٢) الفهرست ٢٥١ .

(٣) المستصفى ١/٦٣ .

(٤) يشير الشهرستانى إلى الواصلية - أو مذهب واصل - على أنها كانت تدور حول أربع قواعد: أ - صفات الله عين ذاته (أصل التوحيد) (ب) القول بالقدر أو حرية الإرادة الإنسانية (أصل العدل) (جـ) القول بالمنزلة بين المنزلتين . (د) القول بخطأ أحد الفريقين المتحاربين فى معركتى الجمل وصفين ولكنه لم يحدد الفريق المخطىء (وهو تابع لأصل المنزلة عنده) وقد تابعه على ذلك النظام ومعمر والجاحظ من المعتزلة أما أغلبية المعتزلة فتجعل عليا مصيبا أنظر الفرق بين الفرق ص ١١ ، الملل ١/٦٤ .

(٥) الملل ١/٥٦ .

(٦) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ١/٣٢٤ ترجمة "أبو ريدة" .

ويقول زهدى جار الله: " وإنه ليخيل لى أن المعتزلة بقولهم هذا فى المعرفة قد سبقوا اثنين من المذاهب الفلسفية الحديثة: فمن قال إن المعارف ضرورية فهو قريب من الفلسفة العقلية "Rationalisn" التى من أعظم رجالها "ديكارت و "ليبنتز" و سبينورا و "كانت" ومن رأى أن المعارف كسبية فهو قريب من الفلسفة التجريبية "Empiricisn" التى من أهم دعاتها لوك وهيوم وباركلى[1].

وهكذا سار واصل في كل ما بحث من أصول المعتزلة خاصة وفى مسائل العقيدة وعلم الكلام عامة على هذا المنهج فالعقل عنده هو الذى يدرك ما فى الأشياء من حسن وقبح وهو قادر على تحصيل المعارف وتمييز الخير من الشر ولديه القدرة على التوصل إلى الإيمان بالله وشكر نعمته. ولاشك أن الاهتمام بالعقل والاعتراف بقيمته من الأمور التى تحمد للمعتزلة خاصة وقد وجد بين المسلمين طائفة تسمى الحشوية كانت تقلل من شأن العقل وتقصر دوره على مجرد التلقى والسماع دون أن يكون له دور فى تحصيل الإيمان.

ولكن ينبغى أن نقرر أن واصلا والمعتزلة من بعده بالغوا فى اتجاههم العقلى فجعلوا حاكما على النصوص الدينية وترتب على ذلك تأويلهم لكثير من نصوص القرآن وإنكارهم لكثير من الأحاديث أو الطعن فيها لأنها تخالف آراءهم المنبثقة عن اتجاههم ومنهجهم العقلى وكان عليهم أن يطامنوا من غلوائهم ويعترفوا بعجز العقل عن إدراك بعض الأمور الإلهية لأنها فوق مستوى طاقته وليس فى ذلك تقليل بحال من قيمته.

٢ - فى أصول الفقه : نعرف أن واصل بن عطاء قد عاصر الإمام أبا حنيفة وصاحبيه أبا يوسف ومحمد بن الحسن ونعرف أنه كانت لأبى حنيفة جهود في تأسيس علم أصول الفقه ، ونضيف هنا أنه كانت لواصل جهوده أيضا فى هذا العلم فهو الذى وضع المذهب الأصولى الفقهى للمعتزلة. يحدثنا الجاحظ عن ذلك فيذكر - فى نص يكشف لنا فيه عن فضل واصل فى هذا المضمار الدقيق - أنه لم يعرف فى الإسلام كتاب كتب على أصناف الملحدين وعلى طبقات الخوارج وعلى غالية الشيعة والمتابعين فى قول الحشوية قبل كتب واصل بن عطاء ، وكل أصل نجده فى أيدى العلماء فى الكلام فى الأحكام فإنما هو منه ، وهو أول من قال الحق يعرف من وجوه أربعة : كتاب

(٢) المعتزلة : ١١٠ .

ناطق وخبر مجتمع عليه وحجة عقل أو إجماع من الأمة وأول من علم الناس كيف مجيء الأخبار وصحتها وفسادها وأول من قال: الخبر خبران: خاص وعام: فلو جاز أن يكون العام خاصا جاز أن يكون الخاص عاما ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكون البعض كلا والكل بعضا والأثر خبرا والخبر أثرا. وأول من قال: النسخ يكون فى الأمر والنهى دون الاخبار.

فى هذا النص يذكر واصل أن الحق يعرف من وجوه أربعة هذه الوجوه الأربعة التى ذكرها تساوى تماما أصول الفقه الأربعة: القرآن والسنة والقياس والإجماع.

فى نفس الوقت الذى يقرر فيه واصل هذه الأصول كان الإمام أبو حنيفة يفعل نفس الشيء وينادى بنفس الأصول. فهل أخذ واصل عن أبى حنيفة وقد كان أبو حنيفة فى الكوفة بينما كان واصل بالبصرة؟ وهل حدث تلاق بينهما؟ خاصة وأن هناك من يرى أن أبا حنيفة كان قدريا مثل واصل ! تساؤلات ليس لدينا من النصوص أو الشواهد ما يؤيدها ولم يبق لنا إلا مجرد الاحتمالات والترجيحات.

ولكن الذى نستطيع أن نؤكده أن واصل بن عطاء كان من الرواد لعلم أصول الفقه. وهذه الأسس الأربعة التى وضعها واصل: القرآن والسنة الصحيحة والعقل والإجماع تمثل عند المعتزلة مصادر مذهبهم فى الأصول والفروع أو فى علم الكلام وفى الفقه.

ولم يكتف واصل بذلك و إنما وضع منهجا يوضح به كيفية مجيء الأخبار وصفتها ويحدد معالمها وهل الخبر عام أو خاص ودلالة كل منهما بهذا المنهج وفتح الطريق أمام الفقه فى تحديد معنى العام والخاص.

ومما هو مهم فى النص الذى نقلناه عن الجاحظ حديثه عن النسخ وأن النسخ يكون فى الأمر والنهى دون الأخبار. وهو بهذا ينكر ويرد على من قال بجواز النسخ والبداء على الله تعالى وهى فكرة أثرت عن الكيسانية ذهبوا فيها إلى أن الله يبدو له شيء ما ثم يبدو له شيء آخر فيغير الأول وينسخه وجعلت الكيسانية هذا الأخبار الماضية والمستقبلة. وقف واصل أمام هذه الفكرة ينقضها كما نقضها على الكيسانية غيره من العلماء . ووضع واصل شروطا للدليل السمعى وهى الشروط ذاتها التى وضعها العلماء من بعده وهى:

(أ) أن يكون غير مستحيل فى العقل.

(ب) وأن يكون قطعى الثبوت.

(جـ) ان يكون قطعى الدلالة.

فأخبار الآحاد إذا صح إسنادها وكانت غير مستحيلة فى العقل فإنه يجب العمل بها[1] . يجب العمل بهـا فى الفروع لا فى الأصول. يقـول القاضى عبد الجـبار وهو معبر عـن رأى واصل "ماهذا سبيله (أى أخبار الأحاد) يجـوز العمل به إذا ورد بشرائطه فأما قبوله فيما طريقة الاعتقادات فلا".

والمعتـزلة تلحق الأحاديث المستـفيضة أو المشـهورة بأخبـار الأحاد بينما تلحقـها الأشاعرة بالمتواترة.

وترتب على هذا الشـرط الأخير (أن يكون قطعى الدلالـة) خلاف فى كثـير من المسائل بين المعتـزلة والأشاعرة نشأ من خـلافهم حول دلالة العام أهى دلالة ظنيـة كما يقول الأشاعـرة أم دلالة قطعية كما تقـول المعتزلة. وهل إذا احتـمل النص التأويل كان قطعى الدلالة كما تذهب المعتزلة أم ظنيها كما تذهب الأشاعرة.

هذا ما احتفظت لنا به المراجع من جهود لواصل فى أصول الفقه وهى وإن كانت قليلة - فإنها مع قلتهـا - تنم أو تدل على أن الرجل كانت له فى هذا المجال باع طويلة وقدم راسـخة وأن ماشـاده المعتـزلة من بعده فى هذا العلم أقـيم على تلك الأسس التى وضعها واصل وشيد على منهجه الذى اختطه.

ولا نريد هنا أن نثير أشجانا على تراث فقط وإنما - فقط - نريد أن نلفت أنظارا لسطور منه بقيت.

٣ - فى الأدب : لواصل فى ميدان الأدب مكانة متميـزة فقد كان خطيبا بارعا وبليغا متفننا ولئن كنا قد رأيناه فى علم الكلام وأصول الـفقه إماماً فسنراه هنا فى مجال الأدب علما له آثار تذكر ولا تنكر. وحسبنا أن نرى بشـارا كثير المديح له وأنه فضله فى

(١) شرح الأصول الخمسة ٧٧٠ .

(٢) السابق ٧٦٩ .

الخطابة على خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق حيث قال فى ذلك:

أبا حذيفة قد أوتيت معجزة من خطبة بدهت من غير تقدير

وإن قولا يروق الخالدين معا لمسكت مخرس عن كل تحبير

وقال أيضا

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا وحبروا خطبا ناهيك عن خطب

فقام مرتجلا تغلى بداهته كمرجل القين لما حف باللهب

وجانب الراء لم يشعر به أحد قبل التصفح والإغراق فى الطلب[1]

وقول بشار "وجانب الراء" إشارة إلى لثغة واصل وكان ألثغ بالراء فكان يتخلص منها ولا يفطن لذلك السامع لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه.

وقال عنه المبرد: كان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة فكان يخلص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك وفى ذلك يقول شاعر المعتزلة[2]

عليهم بإبدال الحروف وقامع لكل خطيب يغلب الحق باطله

وقال آخر:

ويجعل البر قمحا فى تصرفه

وخالف الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق مطرا والقول يعجله

فعاد بالغيث اشفاقا من المطر[3]

وينقل لنا صفوان الأنصارى وقائع ذلك الحفل الذى ألقى فيه واصل خطبته الشهيرة والتى بذّ فيها أقرانه وتجنب فيها حرف الراء دون أن يفطن إلى ذلك أحد.

---

(١) البيان ٢٦/١ .

(١) هو أبو الطروق الضبى كما فى الوفيات ٦٠/٥ .

(٢) الكامل للمبرد ١٢٤/١ والبيان ٣٩/١ .

فسائل بعبد الله في يوم حفلة

وذاك مقام لا يشاهده وغد

أقام شبيب وابن صفوان قبله

بقول خطيب لا يجانبه القصد

وقام ابن عيسى ثم قفاه واصل

فأبدع قولا ماله فى الورى ند

فما نقصته الراء إذ كان قادرا

علي تركها واللفظ مطرد سرد

ففضل عبد الله خطبة واصل

وضوعف فى قسم الصلات له الشكد[1]

فأقنع كل القوم شكر حبائهم

وقلل ذاك الضعف في عينه الزهد[2]

وأما الخطبة نفسها فقد جاء فيها:

الحمد لله القديم بلا غاية والباقى بلا نهاية الذى علا فى دنوه ودنا فى علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سابق بل أنشأه ابتداعا وعدله اصطناعا فأحسن كل شيء خلقه وتم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا مثيل له إلها تقدست أسماؤه وعظمت الاؤه علا من صفات كل مخلوق وتنزه عن شبه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول والأفهام ، يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم

(١) الشكد : العطاء .

(٢) البيان ١/٤٨ ، ٤٩ .

بما يفعلون. وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصدق طوية أن محمد بن عبد الله ونبيه وخالصته وصفيه[1] .

وليس فى هذه الخطبة من حيث موضوعها ما يبعد كثيرا عما هو مألوف فى خطابة ذلك العصر وإن كانت من ناحية أخرى تدلنا على أن واصلا كان شديد الحماس والغيرة على الدين.

وثمة خطبة أخرى قصيرة قالها واصل رداً على خطبة لجعفر بن محمد الصادق غمز فيها مذهب واصل. قال: "الحمد لله العدل فى قضائه ، الجواد بعطائه المتعالى عن كل مذموم والعالم بكل خفى مكتوم نهى عن القبيح ولم يقضه وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه وإنك يا جعفر وابن الأئمة شغلك حب الدنيا فأصبحت بها كلفا وما أتيناك إلا بدين محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبيه وضجيعيه ابن أبى قحافة وابن الخطاب وعثمان وعلى بن أبى طالب أئمة الهدى فإن تقبل الحق تسعد به وإن تصدف عنه تبؤ بائمك[2]

ويحكى أن واصلا لما تتابع عليه ما يثبت زندقة بشار بن برد وهو صديقه قال: "أما لهذا الأعمى المكتنى بأبى معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ، ثم لا يكون رلا سدوسيا أو عقيليا. فقال هذا الأعمى ، ولم يقل بشارا ولا ابن برد ولا الضرير. وقال: من أخلاق الغالية ولم يقل المضرية ولا المنصورية ، وقال لبعثت إليه ولم يقل لأرسلت إليه ، وقال على مضجعه ولم يقل على فراشه أو مرقده ، وقال يبعج ولم يقل يبقر. وذكر بنى عقيل لأن بشارا كان يتوالى إليهم ، وذكر بنى سدوس ، لأنه كان نازلا فيهم. قال المبرد بعد أن روى هذه القصة: "واجتناب الحروف شديد"[3].

---

(١) توجد هذه الخطبة كاملة وغير محرفة فى المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات التى قام بتحقيقها الأستاذ عبد السلام هارون ولقد أشار المحقق إلى الجهد الكبير الذى بذله فى سبيل نشرها على الصورة التى عليها ويوجد نص محرف للخطبة فى كتاب مفتاح الأفكار ص ٢٧ وعنه نقل الأستاذ "أحمد زكى صفوت" فى جمهرة العرب ٤٨٢/٢ هذه الخطبة والذى يقرأ الخطبة وهو خالى الذهن عن لثغة واصل لا يشعر مطلقاً بهذه الظاهرة أو أن واصلا أسقط حرف الراء .

(٢) المنية والأمل ٢٠ ويلاحظ هنا أنه تجنب حرف الراء أيضا إلا عندما نادى جعفر باسم ولكنه عندما أراد أن يقول أبو بكر وعمر قال ابن أبى قحافة وابن الخطاب .

(٣) الكامل للمبرد : جـ ٢ ص ١٢٤ ، ١٢٥ وانظر: الوفيات جـ ٥ ص ٦٠ وأمالى المرتضى جـ١ ص ٩٧ .

هذه بعض نماذج من كلام واصل الذي تجنب فيه الراء حتى يسلم من استبشاع الناس للثغة التى كان يحس بأنها عيب شديد.

ولئن دلت هذه الظاهرة على شيء ، فإنها تدل على أن واصلا لم يكن رجلا عاديا ، وأن منزلته فى الفصاحة وبلاغة القول ، لم تكن منزلة اضرابه ومعاصريه فهذه المقدرة الفائقة التى مكنت لصاحبها أن يتجنب بهذه السهولة حرفا من أكثر الحروف دورانا فى الكلام. لتدل على خصوبة الفكر وحدة الذهن وسرعة الخاطر وطول المراس بفنون الكلام وأساليبه ، حتى لقد استطاع أن يأخذ منه ما يريد ، ويدع ما لا يريد.

وقد فتن الجاحظ كثيرا بهذه المقدرة التى كان يتمتع بها واصل ، وتحدث عنها فى بيانه حديثا طويلا يدل علي إعجابه ودهشته ، وقد قرر أنه لولا تواتر الأخبار باقتدار واصل على تجنب الراء فى كلامه ، لما صح ذلك عنده ، ولما تأكد له. يقول بعد كلام طويل يتحدث فيه عن لثغة واصل والسبب الذى دعاه إلى تجنبها: " . . . ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة زام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإسقاطها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل ، ولولا استفاضة هذا الخبر ، وظهور هذه الحال ، حتى صار لغرابته مثلا ، ولطرافته معلما ، لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له ، ولست أعنى خطبة المحفوظة ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة: وإنما عنيت محاجة الخصوم ، ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الإخوان"[1] .

وكلام الجاحظ هنا ، يدل على أن هذه الظاهرة البلاغية عند واصل ليست بالشيء الهين اليسير الذى لا يستغرب حدوثه؛ وإنما هى شيء قلما يتيسر لغير بليغ قادر متمكن مثل واصل ، ومع هذا فلولا استفاضة الخبر بها لما استجاز حدوثها.

والجاحظ فى حديثه هذا ، يلفتنا أيضا إلى شيء مهم ، هو أن واصلا فى تجنبه حرف الراء ، لم يكن يفتعل ذلك افتعالا أو يتكلفه تكلفا ؛ وإنما قد أصبح لطول الدربة عليه والممارسة له أمراً سهلا يأتيه دون معاناة أو مجاهدة ، ولئن كانت خطبه ورسائله

(١) البيان والتبين : جـ١ ص٣٢ .

تحتمل الصنعة والتكلف لتوفره عليها وتهيئه لها؛ فإن محاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء ومقاومته الأحداث لا تحتمل ذلك لأنها أمور يبتدة بها صاحبها ، فليس يستطيع معها تكلفا أو محاولة.

ولقد تناقل الناس فى أيام واصل وبعد أيامه هذه الظاهرة الغريبة ، وأصبح شعراؤهم يتندرون بها ، حتى لقد أصبح عندهم مضرب الأمثال. وإذا ما حفل الشعراء بشيء وتندروا به ، فإن ذلك يدل على أن ذلك الشيء كان مما يستلفت النظر ويستحق التسجيل. وهاك نموذجا من أقوال الشعراء فى تجنب واصل الراء فى كلامه:

قال محمد الخازن من قصيدة له في مدح الصاحب بن عباد.

نعم تجنب (لا) يوم العطاء كما تجب ابن عطاء لفظة الراء

وقال آخر في محبوب له ألثغ

أعد لثغة لو أن واصل حاضر ليسمعها ما أسقط الراء واصل

وقال آخر:

أجعلت وصلى الراء لم تنطق به وقطعتنى حتى كأنك واصل

وقال آخر:

فلا تجعلنى مثل همزة واصل فتلحقنى حذفا ولا راء واصل

وقال أبو عمرو الكندى الأندلسى:

لا الراء تطمع فى الوصال ولا أنا البحر يجمعنا فنحن سواء

فإذا خلوت كتبتها فى راحتى وقعدت منتحيا أنا والراء[1]

وقال الأرجائى:

ذا امتعاض أخفى اختلالى عن الرا

ئى كإخفاء واصل للراء

(١) وفيات الأعيان : فى ترجمة واصل: جـ٥ ص٦١ ، ٦٢ .

وقال أيضا:

هجر الراء واصل بن عطاء فى خطاب الورى من الخطباء

وأنا سوف أهجر القاف والرا ء مع الضاد من حروف الهجاء[1]

وقد لفتت ظاهرة تجنب الراء عند واصل أنظار الناس فأخذوا يتساءلون عما يصنعه واصل فى الكلام الذى لا يمكن أن يتجنب فيه الراء كالأعداد وأسماء الشهور وايات القرآن وغيرها. قال قطرب: سألت عثمان البرى كيف كان واصل يصنع فى العدد؟ وكيف كان يصنع بعشرة وعشرين وأربعين؟ وكيف كان يصنع بالقمر والبدر ويوم الأربعاء وشهر رمضان؟ وكيف كان يصنع بالمحرم وصفر وربيع الآخر ورجب؟؟ فقال مالى فيه قول إلا ما قال صفوان الأنصارى.

ملقن فيما يحاوله . . جم خواطره جواب افاق[2]

وروى أن رجلا قال لواصل: "كيف تقول أسرج الفرس قال: ألبد الجواد ، وقال له آخر: كيف تقول : ركب الفرس وجر رمحه؟ قال استوى على جواده وسحب عامله"[3] .

وروى أنه قد امتحن يوما حتى يقرأ سورة براءة فقرأ على الفور من غير تفكير ولا تدبير عهد من الله ونبيه إلى الذين عاهدتم من الفاسقين فسيحوا فى البسيطة هلالين وهلالين[4] .

فهو هنا يقرأ الآية بمعناها فرارا من الألفاظ التى تشتمل على حرف الراء وكونه يلهم الألفاظ التى تؤدى المعنى ولا تشتمل على حرف الراء بمثل هذه السرعة دليل على ذكائه وسرعة خاطره.

وذكر أبو الحسن البرادعى المتكلم أن إنسانا سأل عمرو بن عبيد أو غيره عن شىء فى القدر بحضرة واصل بن عطاء فتكلم السائل بشىء أغضب عمروا فأجابه عمرو

(١) من نوادر المخطوطات: المجموعة الثانية . تحقيق عبد السلام هارون ص ١٢٣.

(٢) البيان والتبين : ٣٩/١ وزنظر مجمع الأدباء ٢٤٦/١٩ .

(٣) أمال المرتضى ١١٤/١ .

(٤) عيون التواريخ لابن شاكر : حوادث سنة ١٣١ مخطوطة بدار الكتب المصرية .

بجواب لم يرضه فقال له واصل: "إياك وأجوبة الغضب فإنها مقدمة والشيطان يكون معها وله فى تضاعيفها همزة وقد أوجب الله عز وجل على نبيه أن يستعيذ من همزات الشياطين إلى خاتم الآية . . " قال البرادعى انظر إلى واصل كيف أخرج الراء من كلامه فقال موضع "والشيطان يحضرها" يكون معها وقال وقد أوجب الله على نبيه ولم يقل أمره وقال وأن يكونوا معه بدلا من أن يحضروه ثم قال إلي خاتم الآية ولم يقل إلى آخر الآية.

قال المرتضى: ومما لم يذكره البرادعى أنه عدل عن افتاح الآية من أجل الراء أيضا لأن أولها: وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ولولا قصده إلى العدول لكان ذكرها واجبا من ابتدائها[1].

هذا ويذكر صاحب معجم الأدباء[2] أو واصلا كانت له خطب وحكم من الكلام ومناظرات ورسائل وأخبار يطول ذكرها وله شعر أجاد فيه ثم لم يذكر له سوى بيتين هما:

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم

ولا تلقهم بالعقل إن كنت ذا عقل

فإن الفتي ذا العقل يشقى بعقله

كما كان قبل اليوم يشقى ذوو الجهل

وهذا يدل على أن واصلا قد كون تكوينا خاصا وتوفرت له إمكانيات ثقافية معينة هيأته لتلك المنزلة الفريدة فى عالم البيان وماذا ينتظر من رجل يقود مدرسة فكرية جديدة شقت طريقها وسط عديد من المذاهب والأفكار والعقائد إلا أن يكون من طراز خاص يؤهله لتلك القيادة الفكرية. فى العلم والأدب والخلق.

ويذكر الذهبى أنه حين دخل معه عمرو بن عبيد الاعتزال زوجه أخته وقال لها: زوجتك برجل ما يصح إلا أن يكون خليفة ، وأنه فضله فى خطابته على الحسن

---

(١) أمالى المرتضى ١١٤/١ .

(٢) ٢٤٧/١٩ .

البصرى وابن سيرين ، وكان يشبهه بالملائكة والأنبياء ، ويقال أن عمروا عاب واصلا بطول العنق ثم ندم بعد ذلك وقال:

أشهد أن الفراسة باطلة إلا أن ينظر رجل بنور الله[1]. وسئلت أخت عمرو بن عبيد وكانت زوجة واصل أيهما أفضل قالت بينهما كما بين السماء والأرض.

ووصفت واصلا فقالت: كان واصل إذا جنه الليل صف قدميه يصلى ولوح ودواة موضوعات فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد فى صلاته[2].

وعتب رجل من المعتزلة جليل على عمرو بن عبيد فى شىء كان بينهما فأنشد معرضا به:

إن الزمان وما تغنى عجائبه . . ابقى لنا ذنبا واستأصل الرأسا

ثم قال: يرحم الله واصل بن عطاء. قال فرفع عمرو رأسه وقد اغرورقت عيناه ثم قال: نعم يرحم الله واصل بن عطاء كان لى راسا وكنت له ذنبا. والله ما رأيت أعبد من واصلَ قط. والله ما رأيت أزهد من واصل بن عطاء قط والله ما رأيت أعلم من واصل بن عطاء قط! والله الذى لا إله إلا هو لصحبت واصلا ثلاثين سنة - أو قال عشرين سنة - ما رأيته عصى الله قط[3].

هكذا كان واصل بن عطاء النبتة الأولى التى انبتت تلك الدوحة العظيمة من العلم وكأن الدعامة الفكرية التى ارتكز عليها المعتزلة بوجه خاص والمتكلمون بوجه عام.

واستنادا إلى واصل يرجع المعتزلة بمذهبهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون إن ذلك لا يستطيع أن ينكره أحد لأن خصومهم يقرون بأن مذهبهم يستند إلى واصل بن عطاء وأن واصلا يستند إلى محمد بن على بن أبى طالب (وهو ابن الحنفية) وابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد بن على وأن محمدا أخذ عن أبيه على وان عليا أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [4].

---

(١) المنية ص١٨ .

(٢) السابق ١٩ .

(٣) أنظر : فضائل الاعتزال وطبقات المعتزلة ٦٧ وقد أورد كل من القاضى عبد الجبار والحاكم الجشمى هذا الخبر حكاية عن أبى الهذيل .

(٤) الحور العين ٢٠٦ وانظر : شرح عيون المسائل لوحة ٩٠ وأمالى ابن المرتضى ٧ .